ياصاحبي . قال هذا وهم بالابتعاد فقام اليه نجيب ووضع في يده بعض الشيء ثم حياهما وشكر وسار

— الفصل السادس —

(تأثير الكائنات بعضها على بعض وتأثير الممالك الثلاث)
(باجزائها بعضها على بعض)

بقي نجيب وفريد جالسين على مقعدهما بعد ذهاب الشيخ لأن الوقت كان مبكراً أمامهما فالغد كان أحداً وهو يوم عطلة وليس عندهما من الاعمال مايدعوهما الى الاسراع فقال فريد لنجيب أن شيخك ياصاح لهو نابغة حقيقة فقد استصغرت نفسي أمامه الى حد العدم مع أني ولا أخفي عليك لما شاهدته لأول مرة لم اسمره بقرش فصحيح أن من يحكم على الظواهر يخطيء ولكن ما يحمس على فهمه أن هذا الرجل رغم معارفه الواسعة ورأسه المفكرة المملوءة بالحكمة يبقى هكذا هائما على وجهه ينام في العراء متوسدا الغبراء وملتحفاً السماء ليس له مكان يأوي اليه يتنقل باطماره البالية من بلد الى بلد يستجدي اكف المحسنين مع أنه وأني

واثق من هذا باستطاعته بعمل واحد أن يشهر ذاته فيلفت اليه الانظار فينال مكانا رفيعاً ويعيش سعيداً متنعما فيفيد نفسه وينفع الغير فاجابه نجيب وقال لربما كنت محقا في ملاحظتك ولكن لاتتسرع يا أخي فامل له عذراً أو غاية مخصوصة يقصدها بحياته هذه ونحن نجهلها بل لربما كانت السعادة لديه حسب وجهة نظره هي في معيشته على هذا النمط لان السعادة ان كانت هنالك سعادة تختلف باختلاف وجهة نظر كل واحد فمنهم من يراها في جمع المال ومنهم من يراها في المناصب ومنهم من يراها في الحب ومنهم من يطلبها من وراء الشهرة ومنهم من يراها في خدمة الناس ومنهم من يراها في السكون والانفراد ومنهم من يراها في طلب العلم والتوسع فيه ومنهم من يراها في التمتع بالملذات ومنهم كثير كل واحد على حسب ما يتراءى له ولكني انا يافريد أرى أن لاسعادة البتة في الحياة لان الحياة كفاح دائم مستمر طالما أن سنة التبادل والتوازن طبيعية وسنة التحول والانقلاب طبيعية أيضاً كما بين لنا الشيخ وكما يثبت ذلك لنا الواقع وعلى كل فما لنا ولخصوصياته فأن له من عقله ما يرشده

الى ما يراه اوفق له ولنعد الآن الى التفكير فيما قاله لنا فهذا اولى وانفع ولنغتنم هذه الفرصة لندرس عليه ونأخذ عنه ما أمكن فقال فريد لقد صدقت يا أخي وسأمضي يوم غد في التفكير لعلي اصل الى تفهم ما قال او على الاقل الى ترويض عقلي على تفهمه فاجابه نجيب وقال : اسمع يا فريد أريد أن أشير عليك بامر لعلك توافقني عليه . لقد صرحت لنا علنا ولست أشك بصدقك لما اعلمه عنك وأعرفه فيك من الصراحة والصدق بأن عاطفة حبك لفريدة قد تلاشت وأعلم أيضاً أن عرى الصداقة متوطدة بينك وبين أفراد عائلتها فاذهب غدا وزرهم في منزلهم وحادث فريدة كالمعتاد كأن لم يكن شيء مما كان وسهل السبل لمقابلتنا بها ولا تسلني الآن عن السبب فأن لي بحثا أريد أن اجريه فبهت فريد لهذا الطلب وعرته الدهشة وبقي هنيهة حائرا صامتا ولكنه لعلمه ببعد نظر نجيب وأن لابد ان يكون له ثمة غاية معينة يقصدها وحقيقة يريد أن يستجليها لصالح الفريقين قبل ذلك رغم ما كان يخشاه من سوء تأثير هذه المقابلة بعد كل ما حصل

رجع الاثنان الى منزلهما صامتين لا ينبسان ببنت شفة ولما اقترب نجيب من منزله صافح فريدا على أمل المقابلة في الغد وتركه ولما بقي فريد وحده خطر بباله خاطر فنظر الى ساعته فوجد أن لم يزل في الوقت متسع فسار يسرع الخطى الى منزل فريدة لأن اليوم كان يوم استقبال أهلها وحضوره في مثل هذا اليوم يكون عاديا مألوفا فلهذا ولدافع خفي أيضاً يجهله سار من ساعته لزيارتهم

دخل فريد وحي فقوبل بكل حفاوة واكرام من آل البيت وممن حضر عندهم من الزائرين وبعد تبادل عبارات المجاملة مما تطلبه المقام سأل أخو فريدة فريدا عن سبب تغيبه في هذه الايام عن القهوة حيث كان مجمع الخلان عادة وقبل أن يجيبه على هذا السؤال دخلت فريدة وكانت شاحبة اللون يدل منظرها على ألم خفي وتأثير نفسي كانت تعلله أمام الحضور بألم في معدتها ولما رأت فريدا ازداد أصفرارها ولكنها تجلدت وتقدمت اليه وحيته كالمعتاد دون أن ينتبه أحد لما بدا عليها غيره فدعاها الى الجلوس بالقرب منه ومن أخيها ولما جلست أجاب فريد وقال تسألني

عن سبب تغيبي عن القهوة هذه الايام فما قولك اذا قلت بأني كنت مشغولا بدرس الفلسفة فتبسم اخو فريدة وقال ولا شك على صديقك نجيب فأجاب فريد وقال ليس عليه ولكن معه على شيخ غريب عجيب فقال أحد الموجودين وكان يبغض نجيبا ولا يترك فرصة تمر دون الحط من كرامته والسب فيه حسدا وخساسة وقد تجرأ بتبسم أخي فريدة عند ذكر الفلسفة فقال شيخ غريب عجيب أستاذ صديقك نجيب فطبعا يجب أن يكون مثله فالطيور على أشكالها تقع ولكن ما لا أفهمه هو كيف أنك وأنت الكاتب الذكي القدير ترضى بمعاشرة نجيب الغريب الاطوار النصف مجنون وأراد أن يتابع القول ولكن فريدا غضب لهذا وشاركته في غضبه فريدة لا بل زادت عليه لانها كانت أدرى بحقيقة نجيب من غيرها كما اشمأز من هذا التطاول أكثر الحاضرين منهم لمعرفتهم لنجيب ومنهم للتطاول نفسه وللقدح في الناس فقال الرجل نصيبه من المقت واللوم مما أضطره الى الخروج وعاد فريد الى الكلام فأخبرهم عن معرفته بالشيخ وعن بعض ما قاله وشرحه فتعجب بعضهم

ممن فهم القول كما أن البعض الآخر لم يعر ذلك اهتماما وكانت فريدة اكثر الحاضرين تعجبا فقالت يا حبذا لو تمكنت من التعرف بهذا الرجل قالت هذا مدفوعة بجملة عوامل منها لكونها اديبة متعلمة ذكية وكانت تتوق لمثل هذه المباحث ومنها لكونها امرأة تحب الاستطلاع بطبيعة الحال ومنها أنها كانت تريد أن توجد مع فريد للتكلم عن الحادثة فأجابها فريد اني غدا قرب المغرب على ميعاد في الجزيرة مع نجيب ومعه فاذا شئت وشاء الاخ حضرت أنا ونجيب الى هنا قبل الوعد فنذهب سويا أو أن تتقابل عند آخر الجسر عند مدخل الجنينة فقال الاخ أذا احببت يا فريد فاحضر غدا مع نجيب الى هنا فنشرب القهوة ثم نرى رأينا وعلى هذا تمّ الاتفاق فاستأذن فريد في الذهاب وودع الحاضرين وخرج

في اليوم الثاني تقابل فريد مع نجيب فأخبره بكل ما حصل واتفق معه على الذهاب سوية الى منزل فريدة بعد الظهر وأخبره ايضاً بتطاول ذلك الرجل وما ناله من الحاضرين فتبسم نجيب وقال عجيب فهذه مرة أخرى

يصدق معي الحديث «اتق شر من أحسنت اليه» أعلم يا فريد أن هذا المتطاول مدين لي بحالة اليسر التي هو فيها فلولاي كان على الحضيض ولكن لا بأس فالله لا يضيع اجر من أحسن عملا

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال فريد لقد صدقت ومثل هذا قد صادفني أيضاً مرارا ولكني لا أدري كيف اعامله وسأسأل الشيخ هذا المساء عله يفيدنا بشيء عنه فقال نجيب سأكفيك مؤنة الانتظار حتى المساء وسأكفي الشيخ مؤنة الرد فأني افيدك عما طلبت ولعلي مقنعك وأنت حر بأن تقبل أم لا وعلى كل فأن هذا الحديث يساعدنا على تمضية الوقت لحين موعد الغداء : أن من طبع الانسان العنفوان وحب السيادة والعظمة سيان في هذا الغني والفقير الكبير والصغير العظيم والحقير وهو لا يأتيك لطلب حاجة الا مرغما لاحتياجه اليك أو مدفوعا بعامل آخر فأذا التلته اياها شعر بأنه مدين لك وهذا يؤلم عنفوانه ويحط من سيادته وعظمته في عينيه

ولربما شعر بأهانة عزة نفسه امام الآخرين : فيزين له الوهم أن يثلم من قدرك او يسعى ليؤذيك بمالك وبمركزك حتى يظهر بمظهر أهم منك فينتقم لمنفوانه ولعزة نفسه منك لجهله وما أكثر الجهال أما أذا كان ممن تثقف عقلهم حقيقة وما اقل هؤلاء عرف لك الجميل وشكر لهذا واعتمادا على الاكثرية يجب الحذر من انتقام المحسن اليه ويوجد ايضاً اناس بينما يعرفون لك جميلك ويحفظونه تراهم يفقطون احسان شخص آخر والعكس بالعكس وهذا اعاله بتجانس بين الارواح او بتنافرها فالمتعارفة تزداد بمثل هذا تقربا والمتباعدة تباعدا ففكر فريد هنيهة ثم قال لربما كنت مصيبا يا نجيب واخذ الاثنان يسردان على بعضهما ما حصل لهما وما سمعا به من مثل هذه الحوادث ويطبقانه على احدى النظريتين الى ان حان وقت الغداء فافترقا على موعد اللقاء امام منزل آل فريدة

التقى صاحبانا في الموعد المحدد أمام منزل فريدة فصعدا سوية اليه وبعد شرب القهوة خرجا وخرجت فريدة واخوها وسار الجميع نحو قصر النيل قاصدين الجزيرة فدخلوا احدى

القهوات وبعد أن شربوا بعض المرطبات وهم يتجاذبون أطراف الحديث طلب سليم أخو فريدة وكان لا يهمه من الحياة سوى اللهو والطرب ولعب الميسر أن يعفى من مرافقتهم الى مقابلة الشيخ لانه يرغب في الذهاب الى رهان صيد الحمام فاجابه فريد خيراً تفعل ياسليم لاني على يقين من أن منظر الشيخ في نظرك لا يوازي منظر الحمام ولا حديثه يسليك كحديث من ستكون معهم هناك من الأصحاب ولكن حيث أنه لم يزل عندنا وقت فسنرافقك الى هناك ثم نعود مشياً الى مقعدنا اذا سمحت بذلك فريدة فوافق الجميع على هذا ونادوا باحدى العربات فركبوا ولما وصلوا الى محل صيد الحمام تفارقوا على أمل المقابلة مساء ودخل سليم محل الصيد ونجيب وفريد وفريدة ساروا الى مقابلة الشيخ يفكر كل منهم بماذا يفتتح الحديث ولكنهم لم يقعدوا بضعة أمتار حتى شعر نجيب بقشعريرة هزت جسمه فنظر حواليه يبحث عن السبب فتنبهت فريدة لهذا وسألته عما به فقال لا أعلم لقد شعرت بقشعريرة هزت جميع جسمي من اخمص قدمي الى قمة رأسي كما لو كنت بالقرب من وحش كاسر أو حية أو قاطع

طريق في مكان منفرد لهذا فاني أنظر يميناً وشمالا لعلي أرى الموجب لهذا التأثير الخفي الذي به شعرت إذ أن شعوري كما لاحظت دائما لم يخني البتة فاجابه فريد وقال دع عنا ياأخي مثل هذه الأوهام ولا تزعج فريدة ففطن نجيب لملاحظته ولكنه عاود الكلام وقال نعم أنك مصيب في قولك ولكن ألا ترى فريدة أننا نحن الاثنان هنا فما نخاف لذا أقول لك وأكرر القول بانه لابد ان يكون بالقرب من هنا ثعبان أو ذئب أو أي شيء مثل هذا فقفا انتباهنا فاني مقترب من هذا الهشيم لأتحقق الأمر قال هذا وتقدم من شاطىء النيل بكل احتراس ولما دنا منه رأى بضعة عصافير ترفرف باجنحتها تريد الهرب والطيران ولكنها لاتستطيع الارتفاع كان هناك قوة تجذبها اليها ورأى على الأرض ثعبانا رافعاً رأسه محدقا بها النظر يتقدم منها رويداً رويداً لافتراسها فتراجع نجيب قليلا وأومأ الى فريد بالتقدم وحده بكل تؤدة وهدوء فجاء وجاءت وراءه فريدة ولم يكد يقع نظرهما على هذا المشهد حتى ذعرا وهما بالتقهقر فهدأ روعهما وقال مهلا فان لنا بهذا المنظر درساً مفيداً جدا فانصتا ولا تأتيا باقل

حركة لأني أريد المراقبة الى النهاية فقالت فريدة مسكينة هذه العصافير فان هذه الحية ستلتهمها فاجاب نجيب لاتخافي عليها فاني قد احتطت للأمر وسأضربها بهذه الحجارة فتنفر وتخلص العصافير ولم تزل الحية تدنو والعصافير تقلل من صياحها وحركتها كأن الخوف قد هد منها كل حيل حتى كادت تقع فريسة عندئذ تناول نجيب الاحجار وأخذ يرشق الحية وفعل فريد وفريدة فعله فنفرت وهربت وتطايرت العصافير وتراجع أصحابنا بكل سرعة الى الطريق

سار أصحابنا بضع خطوات دون كلام منذهلين مما رأوه ولكنهم لم يطل صمتهم كثيراً حتى قطعه نجيب بقوله لهما كيف رأيتما ؟ ألم أكن محقاً في زعمي ؟ لقد قلت لكما ذلك ولكن الصديق فريد لم يرد أن يصدق فها قد حقق الواقع مابه شعرت فأجابت فريدة لقد كنت الآن أفكر بهذا وأقيسه ببعض حوادث جرت أيضاً لي وقد ذكرتني هذه الحادثة بجملة حوادث حصلت لي مع أناس كنت عند ما أراهم أشعر بانزعاج أو بعدم ارتياح لمحضرهم وكان يتحقق دائما انزعاجي بما كان يجري منهم لي أو بما كان يصدر عنهم مما

كنت أراه أو اسمعه عنهم لذا اصبحت تراني يانجيب أعير أهمية كبرى لأول تأثير عند مقابلتي لأي كان فما هو السر يارى في هذا لعل الشيخ الذي أطنبتما في مدحه يفيدنا عنه هذا فأجاب فريد وقال أني لا أشك في ذلك ولكن ارى ان المسائل تراكمت اليوم لدرجة ربما أنستنا ما طلبناه من ايضاح مسائل الأمس فقال نجيب لاتخف فانا وان نحن نسينا فهو سيذكرنا به ويفيدنا عنه ولاسيما أني أعتقد بان جميع ماحصل اليوم لهو مترابط متماسك مع ماقاله الامس وما سيقوله اليوم قالت فريدة أني كلما سمعتكما تذكران هذا الرجل يزداد اهتمامي بمعرفته وشوقي لرؤياه واستماع كلامه فلعله لايتأخر كثيراً عن الحضور فهاقد قاربنا الوصول لابل علنا نراه وقد سبقنا فيكفينا مؤنة الانتظار لأنه مما يشغل الآن فكري كثيراً هو كيف أن هذه العصافير وهي بنات الجو لم تقدر على الهرب من هذه الحية رغم ما كانت تبديه من العزم عليه بل بقيت محاولتها عبثاً كانها ربطت في مكانها مكهربة من نظر الحية فما سر هذه القوة التي أوقفتها في مكانها رغم خطر الموت فحالتها والحالة هذه كانت تشبه بعض

الشبه حالتي مع هذا الرجل الذي رآني فريدمعه في الشارع فكان سلام فريد كالحجر الذي نفر الحية وأطار العصافير

فدهش فريد عندسماعه هذا وليث صامتا حائراً لايدري اهل يصدق فريدة وما قالت أم هل يعد هذا القول ادعاء منها ذراً للرماد في العيون اما نجيب فلم يكن اقل دهشة من فريد الا انه لم يخاسره اقل شك فيما قالت ففكر قليلا ثم تبسم تبسم الفوز لادراكه ما كان يبغيه وقال لفريدة لقد أخبرني فريد بهذا الأمر فاستغربته جداً وفكرت به طويلا لذا اشرت عليه امس بالذهاب اليكم سعياً وراء هذه المقابلة لاستوضحك السبب وكنت من ساعة وجودنا عندكم الى الآن افكر بطريقة افتتح بها هذا الحديث دون ان آلم شعورك اما الآن وقد قلت ماقلت فلا حاجة لزيادة الايضاح وما مثلك مع الرجل وفريد ومثل العصافير مع الحية ومعنا الا كمثل ما نشاهده في الجيوش في الحروب تساق اليها مرغمة بقوة معنوية اكثر منها مادية تضطرها للملاقاة حتفها وهي تنظر اليه ولا يمكنها الهرب منه قال هذا ونظر إلى الامام فراى الشيخ قادماً من الجهة المقابلة فقال وها هو الشيخ

قد حضر وهو سيوضح لنا هذه المعميات فلنسرع الآن لعلنا نصل قبله فسار الثلاثة مسرعين وبعد قليل كان الجميع معا قرب المقعد المعلوم

بعد مبادلة السلام قال نجيب لا تستغرب ياشيخنا وجود هذه الآنسة معنا فهي فريدة فريد وهي على ما اعرفها من البنات ذوات القلب والنفس والفكر لذا عسر عليّ فهم بعض ماحصل لها معه فاوفدته اليها توطئة لمقابلتها لعلي اقف منها على بعض السبب والحمد لله فقد تسهل الامر وسمعت بذكر الشيخ فطلبت التعرف به وسماع حديثه والدرس عليه ثم قص عليه جميع ماجرى وماقيل ففكر الشيخ مليا ثم نظر الى فريدة وقال يسرني جدا ان اراك هنا وقد تركت ما يروق عادة لبنات جنسك وجئت الينا مدفوعة بحب العلم طلباً للمعرفة والحكمة لهذا فاني ارحب بك ترحيباً مزدوجا ثم مد اليها يده وصافحها

جلس الجميع ولزموا الصمت هنيهة كأن على رؤسهم الطير حتى افتتح الشيخ الحديث وقال ان من ينعم النظر في هذا الكون يرى أن جميع الكائنات تتأثر بعضها من

بعض بلا استثناء من ذلك أي جنس من الاجناس أو أي صنف من الاصناف أو أي مملكة من الممالك الثلاث أو أي عنصر من العناصر الا أن التأثير يختلف بأختلاف القوى

لقد سألني فريد بالأمس كيف يتغلب السلبي على الايجابي أو الايجابي على السلبي مع بقاء التوازن محفوظا سؤال وجيه ولكن لو كان هذان العاملان موجودين في القوتين المتنازعتين فقط ومحصورين فيهما دون غيرهما وتغلب عامل على آخر صح القول بأن الزيادة في أحدهما والنقصان في الآخر يخل في حفظ التوازن ولكن حيث أن هذا التغلب لا يتعدى وحدة او وحدات من مجموع الكائنات بينما العكس يجري على غيرها أيضا ان سلباً أو ايجاباً أو ايجاباً أو سلباً يبقى التوازن دائماً محفوظاً لقد قلت لكما والآن أقول لكم حيث أن أصل جميع الكائنات واحد كما سيأتي بيانه فيما بعد وكانت كل وحدة من الكائنات وكل جزء منها مهما كان صغيراً وكل مظهر من مظاهرها هو قوة قائمة بذاتها تسير على نظام واحد ثابت تضم اليها أو تنضم الى غيرها حسب ما بها من قوة نسبية أمام المنضمة اليه أو المضموم اليها فعلى قدر

القوى المتنازعة يكون التأثير والتحول كما أنه على قدر التجانس يكون الانضمام أو الانفصال

رأى فريد فريدة فجذب أحدهما الآخر اليه وبما أنه وجد بينهما تجانس والتجانس يختلف كثرة وقلة وهو اما أن يكون تجانس المادة كالدم أو تجانس الروح وقد وجد بينهما تجانس دم وروح فقد ائتلفا ومازالا يقويان بعضهما ويتصارعان مع بعضهما دون أن يشعرا كما يتصارعان مع بقية العوامل والقوى حسب نظام الكون فيقوى شيء ويضعف آخر وينضم شيء وينفصل آخر والتحول جار مجراه الى ان صدمتهما باحدهما قوة اقوى فجذبت فريدة اليها الا ان الجاذب كان فقط دمويا لا تجانس للروحين فيه البتة سوى تأثير قوة احدهما وهو الرجل الذي كان معها لذا لما تقابل الثلاثة وكان الاثنان متجانسين دما وروحا اخذت فريدة قوة من فريد بها تغلبت على الرجل الآخر وبقيت مع فريد لان تجانس الدم يتقلب مع المادة وتجانس الروح دائم لان العوامل التي تخضع المادة لها لا شأن لها مع الروح فالروح هي المظهر الثالث من العنصر الفرد الاصيل نعم يمكن الضغط على الروح بواسطة

المادة طالما هي متصلة بها الا أن هـذا التأثير تأثير مفتعل يذهب مع زوال السبب وليس هو بأصيل فالروح لا تتأثر فعليا الا بالروح وعلى هذا فان الحب وما هو الا تأثير التجانس بين الرجل والمرأة اذا كان تجانس دم فقط ذهب عند ما يتلاقى ويتحد الدمان لان القوة التي تصدر من هذا الاتحاد المادي أما أن يأخذها احد الاثنين فيزداد ميل الاول ويقل ميل الثاني او انها تذهب عنهما فتزول بزوالها تلك العاطفة اما اذا كان تجانس دم وروح تقوى تجانس الروح باتحاد وتلاقي المادة بما تستفيده روح الاثنين من تلك القوة الصادرة من تلاقي واتحاد المادة فتمتن تلك العاطفة وتلك الصلة وتصير فيما بعد صداقة لان الروح تأخذ من المادة وتتقوى بها ولـكن المادة لا تأخذ من الروح بل تحفظ بها

ان كل وحدة من الكائنات مهما صغرت لهي شبه آلة فالجماد والنبات آلات صامتة والأحياء آلات عاقلة . ففي الاولى لا يتعدى التأثير المادة أما في الثانية فالتأثير بينها على المادة والروح تأثير يجريه الحي على الحي بارادته مدفوعا بغريزته

الفطرية أو بآرائه أو بعوائده المكتسبة أو يتقبله مرغماً بالنسبة لصلته بالروح والمادة فعلى هذا فان التأثير عام بين الكائنات باجمعها غير أن الاحياء تعانيه وتشعر به والبقية تعانيه بلا شعور لأن الأولى كاملة والاخرى ناقصة فالارض بحيوانها ونباتها وجمادها تتأثر بعضها ببعض كما أنها تتأثر بالعناصر الأخرى وبالكائنات العلوية وتؤثر عليها كما تؤثر الشمس والقمر على الأرض كما نرى في المد والجزر في البحار رأت الحية العصافير فجاءت اليها مدفوعة اما بطبيعتها الفطرية طلبا للغذاء أو بعوائدها المكتسبة ترفها بالمأكل وحيث أن القوة التي بالحية ان جسمية او روحية هي أقوى من العصافير فقد تسلطت عليها واوقفتها بقوة تأثيرها رغم ما كانت العصافير تراه من الخطر المهلك فكانت والحالة هذه قوتها الايجابية ضعيفة جدا بالنسبة لقوة الحية السلبية ولكن لما حضرتم وكنتم مع العصافير على الحية انقلبت الآية وتحولت دفة الميزان فنجت العصافير وهكذا فان الغلبة دائما للقوة قال هذا وصمت قليلا ثم نظر الى اصحابنا الثلاثة يستطلعهم فكرهم وحدق بفريدة بنوع خاص ليعلم مبلغ

فهمها وما استوعبته من هذا الشرح ولكنها لم تطل وقت انتظاره بل قالت له لقد افهمني الشيخ الآن بما ادلى به ما كان لغاية الآن مبهما عليّ فهمه اولا من امور وحوادث شتى وثانيا مما لقيت اخيرا في حادثتي مع فريد لقد كنت اسمع كثيرا عن مثل هذا وكنت أقول ان هذه المسائل خارقة للطبيعة وبهذا كنت اقنع نفسي أما الآن فقد أصبحت يمكني بناء على هذه القاعدة أن اعلل مسائل جمة ولما كان الشيء بالشيء يذكر أقول كنت ذات يوم مع اخوتي في نزهة وأذا بطائر كان كأنه جامد في الهواء انقضّ بسرعة على الارض ثم ارتفع وبمنقاره حية نخفنا وارتعبنا قليلا خوفا من أن يفلتها فتقع علينا فتعجبت جدا من أن هذا الطائر لم يخف الحية بل انقضّ عليها واصطادها فتبسم نجيب وقال لو كنت معنا يا فريدة قبل اليوم حين شرح لنا شيخنا سنة التبادل والتوازن لعلمت اكثر من هذا فحقيقة أن من اخذ بالسيف بالسيف يؤخذ فكما أن حيتنا اليوم تقتات بالعصافير كذلك كان طائرك يقتات بالحية وحيث أن شيخنا قد أذن بدخولك في مدرستنا فسنتولى فريد وأنا افادتك عما سبق

وشرح لنا قال هذا ثم نظر الى الشيخ وقال لقد استفلت نظرى في كلام فريده قولها انهم خافوا لما رأوا الطائر مرتفعا وبمنقاره الحية فالخوف كان من الحية طبعا والخوف يكون عند تغلب القوى المهاجمة على المدافعة او على حسب لغتنا الآن السلبي على الايجابي فماذا نعلل تأثيرهم وهم جماعة من الحية وهي واحدة وفي حالتها هذه لا قوة فعلية لها مع أنه اذا كان هناك تأثير خوف وجب أن يكون من الطائر صاحب القوة على الحية فأجاب الشيخ وقال لقد اصبت فيما قلت ولكن أعلم ان الخوف من الحية في هذه الحالة هو نتيجة وهم تسلط عليهم عند رؤيتهم للحية فذكرهم بما كانوا سمعوا وقرأوا عن الحيات فاضعف فيهم القوة وما أشد تأثير الوهم على الاحياء ويكون الخوف أيضاً من الشيء على قدر توهم الاذية منه فاذية الطائر للانسان جزئية لكن الحية اذا لدغته لربما مات .

الغريزة الفطرية في الاصل هي واحدة في الانسان كما في بقية الاحياء . وضعت فيها لاجل حفظ كيانها في المرحلة التي تقطعها في حياتها فهي الميزان في كل حي

لدرجة معلومة بين السلبي والايجابي . غير انها في بعض اجناس من الاحياء قد ترقت اكثر منها في الاخرى حسب ما طرأ عليها من التأثيرات والتطورات كما أنها في الانسان قد ترقت لدرجة صار يمكن القول عنها انها تغيرت معالمها بما حل محلها من ترقي التصور والابتكار وبما تأثرت به من العادات والاوساط حتى لم تعد البقية الباقية منها تكفي لوحدها لاداء الغرض فوضعوا القوانين والشرائع وما احاطوها به من الاوهام لتقوم مقام هذه الغريزة الفطرية لحفظ ميزة الجنس على غيره . وبما أن الغريزة التي بالحيوان هي نفس العقل الذي بالانسان وهو من خصائص الروح وحيث ان هذه هي مشتركة بين الانسان والحيوان مع حفظ نسبة التفاوت . فلهذا كان تأثير الحيوانات ومنها الانسان بعضها على بعض عظيما كما سبق فذكرت ذلك لقد قلت لكم الان ان كل وحدة من اجزاء هذا الكون هي قوة قائمة بذاتها مهما صغرت او كبرت وهي انما تختلف كبرا أو صغرا بما تقارن به من بقية الوحدات فلهذا فان تأثيرها يختلف فيما تنضم اليه او تنفصل عنه او تصطدم به حسب

نسبتها اليه وفي كل الاحوال لا بد لحصول التأثير فيها ومنها وهذا التأثير هو سبب اختلاف المظاهر والاشكال وتنوع الاجناس وتعدد الوحدات الى ما لا نهاية . واعلموا أن الجاذبيـة ليست سوى مظهر من مظاهر التأثير في المتجانسات ايجابياً او سلبيا للضم او للانفصال . فقالت فريدة أن لي استفهاماً آخرا اظن ان له علاقة بالموضوع ارجو من الشيخ ايضاحه وهو امر شائـع جداً خصوصا بين بنات جنسنا فالبسيطات الجاهلات تؤمن به والمتعلمات تعده من الخرافات والخزعبلات ولقد شاهـدت جملة حوادث بنفسي اوقعتني في حيرة . ولا بد ان شيخنا يكون قد سمع بمسألة العين وما ينسبون لها من التأثير . وها كم ما شاهدته بنفسي وما سمعته ممن اثق بهم تمام الثقة :

كنت ذات يوم مع والدتي وأخي الصغير في زيارة عند بعض الاقارب وكان هناك امرأة قيل لنا أنها عاقر لم ترزق أولاداً فلما شاهدت أخي قالت لامي يالحسن حظك بهـذا الولد واحدقت النظر باخي هنيهة ولـكنها لما خرجت اعترى أخي الم شديـد اضطرنا الى العودة الى البيت ولما كشف

عليه وجد في جنبه ألم يشبه العين في الجهة المواجهة لجلوس تلك المرأة فداويناه عدة أيام كاد فيها أن يقضي عليه حتى شفي وزال الالم . واذكر أيضاً أني كنت مرة مع بعض صديقاتي فجاءتنا احدى البنات من اقارب صديقتي ونظرت إلي وكنت ارسم بيدي بعض الرسوم على قطعة من قماش فقالت ما أجمل هذا الرسم وما أخف يدك فيا حبذا لو كنت أستطيع مثل هذا العمل فشعرت في الحال بالم في يدي أوقفني عن متابعة الرسم ولم يزل ذاك الالم الا بعد علاج بضع ساعات وأمثلة هذه الحوادث كثيرة جدا لا بد أن يكون نجيب وفريد يعرفان ايضا منها الشيء الكثير ـ فقال نجيب نعم اني سمعت كثيراً عن مثل هذا ولكن أغرب ما سمعته من هذا القبيل حادثتان . الأولى جرت في بيتنا أرويها عن أهلي والثانية بالقرب من بستان لعمي . فالاولى هي أنه كان امام بيتنا دالية عنب كبيرة كانت مرفوعة من مدة مديدة على سقالة من خشب متينة الوضع كي تقاوم عواصف الشتاء ففي ذات يوم وكان الزمن صيفاً والدالية عليها من العنب الشيء الكثير جاءنا بعض الزائرين ومعهم رجل مشهور عنه

على حسب اصطلاحهم انه يصيب بالعين وكان اهلي لا يعلمون ذلك فرحبوا بهم حسب المعتاد وبعد تقديم القهوة قطفوا لهم بعض العناقيد من عنب الدالية وكانت كبيرة الحجم جميلة المنظر حلوة الطعم للغاية فاكلوا هنيئاً . ثم نظر ذلك الرجل إلى الدالية وقال حقاً ان هذا العنب طيب في غاية الجودة وهذه الداليه هي حقيقة فريدة في نوعها هنا ـ وفي الحال مالت السقالة وتفككت اخشابها بعضها من بعض وسقطت الى الأرض ـ

والحادثة الثانية هي ان عمي كان مدعوا مع اهل بيته عند بعض الجيران في بستان لهم وكان بين الحاضرين رجل مثل الاول فجرى الحديث عن العين وتأثيرها فتبسم الرجل وقال اذا اردتم ان ابرهن لكم على ذلك فليتفضل اي منكم ويعين لي أي غصن من أغصان هذه النخلة وأنا بنظرة من هنا أقطعه لكم وفعلا تم ذلك مرة ومرتين وثلاثاً فكان هذا الرجل ينظر الى الغصن المعين محدقا به فيسقط الغصن كأنه قطع بسكين حادة حتى دهش الجميع وتولاهم بعض الخوف من عينه وأفعالها ـ فقال الشيخ نعم إن هذه الحوادث لها

مما يستلفت الانظار ولكنها الآن يجب أن تكون عندكم بسيطة لاتستوجب الاستغراب بعد الذي شرحته لكم فان تينك المرأتين في حادثي فريدة وهذين الرجلين في حادثي نجيب يملكون قوة عظيمة تخرج من عيونهم كالسهم فتؤثر على الهدف المسلطة عليه على نسبة قوتها وقابليته وكما أن هذا التأثير جرى في هذه الحوادث على المادة مثل يد فريدة وجسم أخيها وسقالة الدالية واغصان النخلة كذلك يجرى كثيراً على الارواح وخصائصها كما كان الحال في حادثي الحية مع العصافير والطائر مع الحية وكما في التنويم المغناطيسي وانتقال الافكار وخلاف ذلك فقالت فريدة لفورها نعم هذا صحيح وأزيد عليه بان الحيوان يمكن أن يؤثر روحا على الانسان كما أن الانسان يمكنه ان يؤثر روحا على الحيوان

وها كم حادثة من جملة حوادث سمعتها عن الضباع: كان أحد أصدقائنا مسافراً في ليلة ظلماء شاتية من بلد الى بلد وفي الطريق تصدت له ضبع في مكان منفرد ولما رآها اعتراه خوف شديد اضاع رشده وعقد لسانه وفقد كل قوة المقاومة أو الهرب فجمد في مكانه كالتمثال لايبدي حراكا كانه أنيم

مغناطيسيا فتقدمت منه وابتدأت تهشه حيا وتصادف أن مر من هناك في تلك اللحظة اناس سمعوا أنينه فوجدوه على تلك الحالة فعرفوه وكانت الضبع لما شعرت بقدومه تركته ولاذت بالفرار فلحقوا بها وزموها بالرصاص فقتلوها وجاءوا بصاحبنا الى بيته فاجاب فريد وقال لقد كنت سمعت كثيراً عن مثل هذه الامور فكنت انسبها فقط الى الجن والذعر أولا اصدقها ولكن الآن نرى أنها نتيجة عوامل طبيعية كما بين لنا شيخنا ذلك حيث شبه جميع وحدات الكون بالآلات الميكانيكية تنبعث منها القوة السلبية والايجابية وعلى هذا نرى أنه ظهر لنا سبب كثير من الاسرار .

صمت الجميع هنيهة بعد ذلك محدقين بالارض لا ينبسون ببنت شفه ولا يأتون باقل حركة حتى قطع نجيب ذلك السكوت بقوله مخاطبا الشيخ . لقد قال الكتاب . هذا هو الناموس أحبب قريبك كنفسك واكرم اباك وامك . وقد بين الشيخ لنا في كلامه عن التوازن السلبي والايجابي اصل حكمة الآية الاولى والآن بناء على قاعدة التأثير هذه التي لها ايضا مساس بتلك الاية بما يتأثر به الجاني من الانفعالات

المسببة عن المجني عليه يتضح لنا أصل حكمة الآية الثانية لانه مامن أحد يمكنه ان يشعر بتأثير الوالدين من فرح او حزن بغض او حب غضب او سلام مرض أو صحة اكثر من الاولاد لانهم اكثر صلة واكثر تجانسا دما وجسما وروحا وعادة من اي شخص آخر لان الاولاد هم جزء من الوالدين كما أن الغصن يتأثر من الاصل اكثر من تأثره من الخارج ولذا فقد قال الكتاب أيضاً . انه يثأر من الآباء بالبنين الى الجيل الرابع والخامس أي ان التأثير يدوم مادام التجانس لانه بعد هذا يضعف أو يضمحل بما يطرأ عليه من التغييرات وهأنذا اروي لكم حادثة من هذا القبيل سمعتها من احد اصدقائي قال : كان غلام سيء السيرة مبذراً يبعثر كل مايصل الى يديه من الدراهم في اللهو والملذات ضاقت في اصلاحه جميع حيل وارشادات والديه حتى قبض عنه ابوه يده اخيراً فلم يعد يعطيه غير النذر اليسير جدا فتضايق الغلام وعزم على الفتك بأبيه وسمعت الام بالامر فخافت على زوجها من شر ابنها وعلى الابن من سوء المغبة فاخبرت الاب بذلك ورجت منه أن يحتاط للامر ولا يعرض نفسه للخطر لانها عرفت ان الابن

كان عازما على الاقدام على فعلته في تلك الليلة اما الاب فلم يعر الامر ما كانت تنتظره من الاهتمام بل اكتفى بأن سألها اذا كان هذا الولد حقيقة من صلبه ام لا فاثلا لها ان على صدقك يتوقف امر حياتي اما الام وكانت امرأة طاهرة الذيل فقد اكدت للاب انها لم تخنه قط وأن الولد هو لاشك ولا ريب من صلبه فاطمأن الاب لهذا التصريح وقبل امرأته وخرج رغم توسلها اليه بالبقاء ولما رجع بالليل كان الولد كامنا له في إحدى منعطفات الدار المظلمة فلما شعر بقدوم ابيه هجم عليه والسكين بيده وهم ان يغمدها في صدره الا ان الأب وكان حذرا ومتوقعا مثل هذا الهجوم وهذه المفاجأة صاح بالغلام وقال له اضرب ياولد هذا صدري أمامك فحين سمع الولد صوت أبيه ارتجفت يداه وخارت قواه وسقطت السكين من يده وانطرح على قدمي ابيه باكيا يقبلهما متوسلا نادما واعدا بأصلاح سيره وفعلا كان ذلك وأصبح ذلك الغلام السيء السيرة المسرف من خيرة الناس سلوكا واقتصاداً ولما كان الشيء بالشيء يذكر أروي لكم ايضاً حادثة حصلت لى شخصيا تبين لنا تأثير التجانس بأجلى بيان : كنت يوما

مسافرا إلى حلب الشهباء لاول مرة وكان معنا أحد المسافرين اخترت محادثته دون غيره لما ظهر لي من الائتلاف بيني وبينه مشربا وفكرا فقضينا الطريق نتحادث في مختلف الامور حتى وصلنا الى محطة قرب المدينة كان وقوف القطار فيها مقررا له بضعة دقائق فقط ولكن بسبب عطل طرأ على الالة طال الوقوف كثيرا فقمنا الى النافذة لنعرف السبب فوقع نظري على ناظر المحطة يجيء ويذهب ملاحظا عمل اصلاح العطل فاستلفت نظري جدا وشعرت حال رؤيته بميل شديد اليه لم اتمالك من أخبار رفيقي به وكدت لولا أن عاود القطار السير حالا ان انزل لاخاطب هذا الرجل فاعلم علمه ومن اين هو . مضت على هذه الحادثة مدة رجعت في خلالها من سياحتي والتقيت بعدها بصديق سألني عما اذا كنت لم اجتمع هناك برفيق صبانا فلان فقلت واين هو فقال انه ناظر محطة كذا فعلمت اذ ذاك أن ذلك الذي شعرت بالميل اليه لم يكن سوى ذلك الصديق فلهذا لما رأيته في تلك البلاد وكان اكثر تجانسا معي من جميع الباقين شعرت بهذا التأثير وعليه افلا نرى أيضا مثلا ان الأسكندري يأتنس

بابن الاسكندرية في القاهرة والمصري بالمصري في الشام والشرقي بالشرقي في أوروبا ولو اختلف عنه بلدا وأصلا ولغة لانهما فيما بينهما اكثر تجانسا منهما مع الغربي وعلى هذا قال المثل أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب

فقال فريد وأني أنا ايضاً أروي لكم بعض الحوادث مما كنت استهجنه أولا لعدم معرفتي لاسبابه أما الآن فقد أصبحت أنظر اليه بغير تلك العين. كان لي قريب فقير يسكن في بيت حقير منزوٍ في إحدى نواحي القرية فأثرى بعد ذلك هذا القريب وأراد أن يحسن حالة مسكنه فبدلا من أن يبني بيته الجديد في موقع أطلق هواء وأجمل موقعا هدم بيته القديم وأقام في محله بيته الفخيم الجديد فضحكت وقتئذ من فعلته هذه فقال لي أنه يشعر بحنان الى موضع بيته القديم وبميل شديد الى ذلك المكان حيث ولد وعاش صبيا وشابا وكان في حديقتنا شجرة كانت تأتيها ليلا جميع عصافير الجوار لتبيت فيها دون غيرها حتى كادت أن تتلف فعمدت جماعة مرار على تحويلها الى مبيت آخر ولكن عبثاً كنت

أفعل أخيرا اضطرني الامر لاتخاذ طرق شتى تمكنت فيها نهائيا من ابعاد العصافير عنها الى غيرها حتى سلمت وهذا شاهد آخر على ان قربي ذلك وهذه العصافير كانوا مدفوعين بتأثير العادة والذكرى ذاك للبقاء في موضعه وتلك للمبيت على الشجرة فقال الشيخ وبدافع التجانس ايضا لما تأوي قريبك به من بيته والعصافير من شجرتك سلبا وايجابا اخذا وعطاءا حتى اصبح البيت والشجرة فيهم ومنهم اكثر من المواقع والاشجار الاخرى قال هذا وهم بالقيام والقاء كلمة الختام الا ان فريدة نظرت اليه نظرة رجاء وقالت

بقي أمر آخر عن التأثير والشعور أريد قبل أن ننتقل الى بحث جديد أن أستوضح الشيخ عنه لأنه كثيرا ما شغل ذهني وبحثت فيه مليا دون أن اتوصل لمعرفة السبب الحقيقي له ولكن مما فهت الآن فانه لابد أن يكون هناك سبب طبيعي واضح لهذا : لقد كنت عندما آتي بأي عمل يؤذي أو يضايق أحداً أشعر بانزعاج داخلي على قدر تصوري للاذية والمضايقة وكنت أيضاً أشعر بعض الأحيان بمثل هذا الانزعاج دون أن أفعل شيئاً وقد كنت أيضاً عندما أسر

أحداً أو أنفعه أشعر بارتياح وسرور كما أني أيضا كنت اشعر بمثل هذا بدون سبب ولكني في كلا الحالين كنت عندما أخبر بعض رفيقاتي بالأمر كان هذا الشعور إن بالارتياح أو بالانزعاج يخف وأحيانا كان يزول فما هو سر هذا يا ترى فأجابها الشيخ وقال أعلمي يا ابنتي أن التأثير الذي يرسله المصدّر الى المرسل اليه يخف أو يزول اذا تعداه الى شخص آخر حسب قابلية هذا للقبول والتصدير بأسرع مما لو حصر في المرسل اليه لأنه في أذاعته تقاومه عوامل خارجية رأسا بخلاف ما لو كان بقي محصوراً لأن المقاومة في هذه الحالة تبقى محصورة بين القوتين المرسلة والمرسل اليها فقط والتأثير يكون عليهما حسب ما بينهما من التكافؤ أو التفاوت وعلى هذا الاساس بنيت حكمة الاعتراف والاقرار ثم أعلموا يا أولادي أنه كثيراً ما يلتقط الانسان رسالات فرح أو حزن غير موجهة اليه رأساً فيتأثر بها على قدر قابليته الوقتية فهو والحالة هذه مثل آلة اللاسلكي التي تلتقط ما يوجه اليها أو ما يمر في طريقها موجها الى غيرها فاذا دخل الواحد منكم مأتما مثلا وكان فرحا مسروراً تولى عليه الحزن والأسى

كذلك اذا دخلتم عرسا وكنتم حزانى تبدل حزنكم بسرور وطرب فاكتفوا الآن بهذه وسأزيدكم غداً بيانا فقد أزف وقت الفراق فانعموا مساء وموعدنا هنا غدا كما كان بالأمس واليوم فشكروا له أيضاحاته وتقدم منه فريد ووضع في يده بعض الشيء فشكر وحيا وقام

الفصل السابع

إن سنن الطبيعة هي واحدة في الممالك الثلاث

تناول الشيخ عصاه وقام متوكئا عليها وولى وجهه هذه الليلة شطر المدينة ولما ابتعد قليلا قال نجيب لفريدة عسى أن لا تكوني حاقدة علي وعلى فريد لدخولك مدرستنا فاذا كان ثمة حقد فيجب أن يكون علي فقط لأن فريدا لم يفعل الا ما أوحيت به فنظرت اليه فريده فرأته باسما فعلمت أنه انما أراد المداعبة والمزاح ولا غرو فانه كان يعرف عن فريدة رغبتها بالبحث وشغفها بمثل هذه المواضيع وتفضيلها لها على أي شيء آخر فأجابته قائلة قبل أن أجيبك قل لي كم الساعة الآن فنظر الاثنان الى ساعتيهما وكانت الساعة